

الموازنة بين صور المعاني في الشعر والبيان القرآني

عندما نتحدث عن الإعجاز الذي انماز به البيان القرآني على غيره من بيان البشر، وارتقى في أسلوبه وصوره البيانية على سائر البيان؛ فإن أدل شواهد الإعجاز على ذلك هي الموازنة بين صور المعاني، إذ كيف عبر الشعراء في بيانهم البشري عن معنى من المعاني، وكيف ورد تعبير القرآن عن المعنى نفسه؛ لتقف على سر التميز؛ و نستبصر آفاق العروج البياني في التعبير عن الصور والمعاني.

وإنه ليسحرك البيان العالي في قوته وبراعة نظمه وسبكه؛ وينماز عن غيره ببراعته وقوة تأثيره وعمله في النفوس.

وها نحن نقف أمام موازنة دقيقة لصور المعاني في ضروب الشعر وكيف ورد المعنى نفسه في القرآن؛ لنستبصر علو كعب البيان القرآني وأنه خارج عن حول الطاقة البشرية، وإليك أيها القارئ المتذوق دلائل تتلمسها على هذا البرهان.

ولا أجد أرقى في البيان البشري من الشعر الجاهلي السابق لتنزل القرآن، دليلاً على مانقول، وإليك البيان.

يقول تأبط شراً:

ويوم كيوم العيكتين وعظفة = عطف وقد مسّ القلوب الحناجر

ضع هذا بجوار السبيكة البيانية مما ورد في القرآن (وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ)

فأمامنا صورتان لمعنى واحد في مقام واحد، وهو مقام الخوف الشديد في القتال (مسّ القلوب الحناجر) و (وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ)

وتأمل فوارق التعبير والصورة بين البيانيين؛ لتقف بنفسك وتحلق بفكرك في معارج البيان القرآني، وعلو كعبه على البيان البشري، وهو ما سنضع أيدينا عليه ونقف عنده بمزيد شرح وبيان.

يقول تأبط شراً:

ويوم كيوم العيكتين وعظفة *** عطف وقد مسّ القلوب الحناجر



ضع هذا بجوار السبيكة البيانية مما ورد في القرآن (وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ)
فأمامنا صورتان لمعنى واحد في مقام واحد، وهو مقام الخوف الشديد في القتال (مَشَّ القلوب الحناجرُ) و (وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ
الْحَنَاجِرَ)

وتأمل فوارق التعبير والصورة بين البيانيين؛ لتقف بنفسك وتحلق بفكرك في معارج البيان القرآني، وعلو كعبه على البيان
البشري.

ذلك أن قول الشاعر: (مَشَّ) استعمل فعل المس وهو دون (بلغ) في الدلالة؛ على شدة الخوف والفرع؛ لأن (بلغ) فيه دلالة
على بلوغ المنتهى في الفعل والقصد، وهو كذلك إذ بلغت القلوب أقصى ارتفاعها فزعا ووجلا وتحركت من مكانها، اضطرابا
ووجيبا وحركة، حتى انتهت إلى الحناجر في ارتفاعها، وهو ما لا نجده في قول الشاعر من دلالة المس في هذا المقام.

ثم إن الشاعر قلب الصورة الحركية، إذ جعل الحناجر هي التي تنكمش باتجاه القلوب، فجعلها فاعل المس، والقلوب ثابتة في
مكانها لاتتحرك، فضعفت الصورة الحركية هنا، عما هي في البيان القرآني، الذي جعل القلوب هي المتحركة بخفقانها
واضطرابها حال شدة الفرع والخوف، وهذا أنسب؛ لأنها مكان المشاعر والخوف، وهو ما يجده الإنسان على وجه الحقيقة
عند شدة الفرع من اضطراب قلبه، وشدة خفقانه، وانتفاخه؛ حتى يعسر عليه التنفس والكلام، وهو ما لا يكون في الصورة
المقلوبة لدى الشاعر من انكماش الحناجر حتى تمس القلوب، وهي صورة تناسب حال شدة الظمأ منها إلى تصوير الفرع!
فظهر لنا علو كعب البيان القرآني ودقة إحكامه في الصورة الموافقة لمقتضى الحال، وذاك لعمرى ما ليس في طاقة البشر من
قدرات البيان!